الجزاء من جنس العمل في
القرآن الكريم

□ الجزاء من جنس العمل في القرآن الكريم □

○ آيات في الجزاء من جنس العمل ○

[الآية الأولى]

قال تعالى : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ [البقرة : ٩] .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا** ﴾ أي : بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان ، مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ [المجادلة : ١٨] ، ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله : ﴿ **وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ يقول : وما يَغُرّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون بذلك من أنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . ومن القراء من قرأ : ﴿ **وما يخادعون إلا أنفسهم** ﴾ وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد[١] اهـ .

قال القشيري : ثبتوا على نفاقهم ، ودأبوا على أن يلبِّسوا على المسلمين ، فهتك الله أستارهم وقال : عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه إلى أنفسهم ، فصاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم ، فما استهانوا إلا بأقدارهم ، وما استخفوا إلا بأنفسهم ، وما ذاق وبال فعلهم سواهم ، وما قطعوا إلا وتينهم ، ومن كان عالمًا بحقائق المعلومات ، فمن رام خداعه إنما يخدع نفسه[٢] اهـ .

قال الرازي: ثم ذكروا في قوله تعالى: ﴿**وما يخدعون إلا أنفسهم**﴾ وجهين:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٧٣،٧٤). (٢) لطائف الإشارات (١/٦١) .

الأول : أنه تعالى يجازيهم على ذلك ، ويعاقبهم عليه ، فلا يكونون في الحقيقة خادعين إلا أنفسهم ، عن الحسن .

الثاني : ما ذكره أكثر المفسرين : وهو أن وبال ذلك راجع إليهم في الدنيا ؛ لأن الله تعالى كان يدفع ضرر خداعهم عن المؤمنين ويصرفه إليهم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] و ﴿ **ومكروا مكراً ومكرنا مكراً** ... ﴾[1] [النمل : ٥٠] اهـ .

قال سيد قطب: إنهم من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم في غير شعور ، إن الله بخداعهم عليم ، والمؤمنون في كنف الله ، فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم ، أما أولئك الأغفال ، فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها ، يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق ووقوها مغبة المصارحة بالكفر بين المؤمنين ، وهم في الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة بالكفر الذي يضمرونه ، والنفاق الذي يظهرونه .. وينتهون بها إلى شر مصير[2] اهـ .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ **وما يخدعون إلا أنفسهم** ﴾ نفي وإيجاب ؛ أي ما تحل عاقبة الخدع إلا بهم ، ومن كلامهم ، من خدع من لا يُخدع ، فإنما يخدع نفسه[3] . اهـ .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

ولما كان إخفاء شيء عن الله تعالى محالًا ، فسروا مخادعتهم لله بأنه خداع في الصورة لا في الحقيقة ؛ وذلك أنه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ، ولكنهم لا يجزون جزاءهم في الآخرة ، بل يكونون في الدرك الأسفل من النار ، كما أن عملهم الظاهر غير كفرهم الخفي في أنفسهم ، فالجزاء من جنس العمل[4] اهـ .

[الآية الثانية]

قال الله تعالى : ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم**﴾ [النساء:١٤٢].

---

(١) مفاتيح الغيب (١ / ٤٣٩) .
(٢) الظلال (١ / ٤٣) .
(٣) تفسير القرطبي (١ / ١٧١) .
(٤) تفسير المنار (١/ ١٥٠) .

قال ابن كثير :

ولا شك أن الله تعالى لا يخادع ، فإنه العالم بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس ، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً فكذلك يكون حكمهم يوم القيامة عند الله ، وأن أمرهم يروج عنده . كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد .

وقوله : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي : هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا ، وكذلك في القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وبئس المصير** ﴾ [الحديد : ١٣ - ١٥] . وقد ورد في الحديث : « من سمَّع سمَّع الله به ، ومن راءى ، راءى الله به »[١].

قال ابن جرير :

إن المنافقين يخادعون الله بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم ، والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان ، مع علمه بباطن ضمائرهم ، واعتقادهم الكفر ، استدراجًا منه لهم في الدنيا حتى يلقوه في الآخرة ، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم[٢].

قال الرازي :

قوله تعالى : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي : مجازيهم بالعقاب على خداعهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه تعالى خادعهم في الآخرة ، وذلك أنه تعالى يعطيهم نورًا كما يعطي المؤمنين ، فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورهم وبقوا في الظلمة[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٣٨٩) .
(٢) جامع البيان للطبري (٤ / ٣٣٤) .
(٣) مفاتيح الغيب (٥ / ٤٩٦) .

قال القرطبي :

والخداع من الله مجازاتهم على خداعهم أولياءه ورسله . قال الحسن : يُعطى كل إنسان من مؤمن ومنافق نورًا يوم القيامة ، فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا ، فإذا جاءوا إلى الصراط طُفىء نور كل منافق ، فذلك قولهم : ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾[1] [الحديد : ١٣] .

قال القاسمي :

﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ أي : يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، والله يفعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع ، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا ، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة[2] .

قال البقاعي :

وما أضلهم حيث خادعوا من لا يجوز عليه الخداع ؛ لعلمه بالخفايات ، فقال معللًا لمنعهم السبيل : ﴿ **إن المنافقين** ﴾ لإظهارهم لكل من غلب أنهم منه ، ﴿ **يخادعون الله** ﴾ أي : يفعلون بإظهار ما يسر وإبطان ما يضر ، فعل المخادع مع من له الإحاطة الكاملة بكل شيء ؛ لأنه سبحانه وتعالى يستدرجهم من حيث لا يشعرون ، وهم يخدعون المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر ، ﴿ **وهو** ﴾ الذي أمر المؤمنين بما أمرهم فكأنهم يفعلون ذلك معه ، وهو ﴿ **خادعهم** ﴾ باستدراجهم من حيث لا يعلمون ؛ لأنه قادر على أخذهم من مأمنهم ، وهم ليسوا قادرين على خدعه بوجه[3].

قال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله** ﴾ أي : يعملون عمل المخادع ،

---

(١) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٩١) .
(٢) محاسن التأويل (٥ / ١٦١٨) .
(٣) نظم الدرر (٥ / ٤٤١) .

وقيل : يخادعون نبيه ، ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي : مجازيهم على خداعهم ، وقال الزجاج : لما أمر بقبول ما أظهروا كان خادعاً لهم بذلك[١].

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

وأما قوله تعالى : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ فقد قيل : إن معناه يجازيهم على خداعهم ، وأنه عبَّر عن ذلك بالمخادعة للمشاكلة ، كما قال في آية أخرى : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ .

وقال : أي : هو تعالى يغلبهم في الخديعة بجعل خداعهم عليهم لا لهم[٢] .

قال سيد قطب : ويقرر عقب هذه اللمسة ، أنهم يخادعون الله . ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ .. أي : مستدرجهم وتاركهم في غيهم ، لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ، ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم .. تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا ، وذلك هو خداع الله سبحانه لهم[٣] ..

قال القشيري : خداع المنافقين إظهار الوفاق في الطريقة ، واستشعار الشرك في العقيدة ، وخداع الحق إياهم ما توهموه من الخلاص ، وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص ، فإذا كشف الغطاء أيقنوا أن الذي ظنوه شراباً كان سرابا ، قال تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾[٤] [الزمر : ٤٧] .

[الآية الثالثة]

قال تعالى : ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ [البقرة : ١٠] .

---

(١) زاد المسير (٢ / ١٢٣١) .

(٢) المنار (٥ / ٤٦٩ ، ٤٧٠) .

(٣) الظلال (٢ / ٧٨٤) .

(٤) لطائف الإشارات (١ / ٣٧٧) .

قال ابن كثير :

عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وأناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال : شك . ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : شكًّا .

وعن عكرمة وطاووس : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ يعني : الرياء

وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال : نفاق . ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : نفاقًا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال : هذا مرض في الدين ، وليس مرضا في الأجساد ، وهم المنافقون ، والمرض : الشك الذي دخلهم في الإسلام . ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : زادهم رجسًا ، وقرأ : ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم ..** ﴾[التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] . قال : شرًّا إلى شرهم ، وضلالة إلى ضلالتهم . وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله ، حسن ، **وهو الجزاء من جنس العمل** ، وكذلك قاله الأولون ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾(١)[محمد : ١٧] اهـ .

قال ابن جرير :

القول في تأويل قول الله عز وجل : ﴿ **فزادهم الله مرضًا** ﴾ :

قد دللنا آنفا على تأويل المرض الذي وصف الله جل ثناؤه أنه في قلوب المنافقين ؛ هو الشك في اعتقادات قلوبهم وأديانهم ، وما هم عليه في أمر محمد رسول الله ﷺ ، وأمر نبوته وما جاء به - مقيمون .

فالمرض الذي أخبر الله جلّ ثناؤه عنهم أنه زادهم على مرضهم هو نظير ما كان في قلوبهم من الشك والحيرة قبل الزيادة . فزاد الله بما أحدث من حدوده وفرائضه التي لم يكن فرضها قبل الزيادة التي زادها المنافقين ، من الشك والحيرة ،

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٤) .

إذا شكوا وارتابوا في الذي أحدث لهم من ذلك إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السالف ، من حدوده وفرائضه التي كان فرضها قبل ذلك ، كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود ، إذ آمنوا به إلى إيمانهم بالسالف من حدوده وفرائضه ، إيمانا . كالذي قال جلّ ثناؤه : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وهم كافرون** ﴾ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة هو ما وصفنا ، والزيادة التي زيّدها المؤمنون إلى إيمانهم هو ما بينا ، وذلك هو التأويل المجمع عليه .

وقال عن ابن عباس ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : شكا .

وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ فزادهم الله ريبة وشكًّا[1] .

قال القشيري :

في قلوب المنافقين مرض الشك ، ويزيدهم الله مرضا بتوهمهم أنهم نجوا، لما لبَّسوا على المسلمين ، ثم لهم عذاب أليم مؤلم ، يخلص وجعه إليهم في المآل .

وقال : ثم العقوبات العاجلة لهم تشتتُ همومهم ، ثم تُنغصُ عيشهم ، فيبغون بها عن مولاهم ، ولم يكن لهم استمتاع وراحة فيما آثروه من متابعة هواهم ، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه ، وفي معناه قيل :

تبدلتْ فتبدلنا واحسرتا لمن ابتغى عوضًا عنها فلم يجد[2]

قال سيد قطب :

﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ في طبيعتهم آفة .. في قلوبهم علة ، وهذا يحيد بهم

---

(١) تفسير ابن جرير (١ / ١٢٢) .

(٢) لطائف الإشارات للقشيري (١ / ٦١ – ٦٢) .

عن الطريق الواضح المستقيم ، ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيدهم مما فيه ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ .

فالمرض ينشيء المرض ، والانحراف يبدأ يسيرًا ، ثم تنفرج الزاوية في كلّ خطوة وتزداد ، سنة لا تتخلف[1]

[الآية الرابعة]

قال الله تعالى : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [البقرة : ١٤- ١٥] .

قال ابن كثير : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا . أي : أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة ، غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا وتقية ، وليَشْركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم .

﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم** ﴾ يعني : وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم و ﴿ **شياطينهم** ﴾ يعني سادتهم وكبراءهم ، ورؤساءهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين .

وقال مجاهد: ﴿**وإذا خلوا إلى شياطينهم**﴾ إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقوله تعالى : ﴿ **قالوا إنا معكم** ﴾ ، روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس : أي : إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ أي إنما نستهزىء بالقوم ، ونلعب معهم .

وقوله تعالى جوابًا لهم ومقابلة على صنيعهم : ﴿ **الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ .

قال ابن جرير : أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة ، في قوله تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة**

---

(١) الظلال للشيخ سيد قطب (١ / ٤٣) .

وظاهره من قبله العذاب ﴾ الآية [الحديد : ١٣].

قوله تعالى: ﴿**لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين** ﴾ [آل عمران : ١٧٨]. قال : فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره ، وسخريته ومكره وخديعتَه للمنافقين وأهل الشرك ، عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل .

وقال آخرون قوله : ﴿ **إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم** ﴾ وقوله : ﴿ **يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقوله : ﴿ **فيسخرون منهم سخر الله منهم** ﴾ [التوبة : ٧٩] . و ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ [التوبة : ٦٧] وما أشبه ذلك – إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم جزاء الاستهزاء ، ويعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم – مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان ، كما قال تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] . و ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه** ﴾ [البقرة : ١٩٤] . فالأول ظلم ، والثاني عدل ، فهما وإن اتفق لفظاهما قد اختلف معناهما .

قال : وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك[(١)].

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ أي : ينتقم منهم ، ويعاقبهم ويسخر بهم ، ويجازيهم على استهزائهم ، فسمى العقوبة باسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء . والعرب تستعمل ذلك كثيرًا في كلامهم ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلـنْ أحـدٌ علينـا   فنجهل فوق جهل الجاهلينـا

فسمى انتصاره جهلًا ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ، وإنما قاله ليزدوج

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١ /٧٦ –٧٨) .

الكلام ، فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما ، وكانت العرب إذا وضعوا لفظًا بإزاء لفظ جوابًا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه ، وإن كان مخالفًا له في معناه ، وعلى ذلك جاء القرآن والسنة ، وقال الله عز وجل : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] . وقال : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ [البقرة : ١٩٤] . والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء ؛ لأنه حق وجب ، ومثله ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ [آل عمران : ٥٤] . و ﴿ **إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا** ﴾ [الطارق : ١٥، ١٦] . و ﴿ **إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم** ﴾ وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ، وكذلك : ﴿ **يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . ﴿ **فيسخرون منهم سخر الله منهم** ﴾(١) [التوبة : ٧٩] اهـ .

قال ابن جرير :

وقال آخرون : إن معنى ذلك أن الله عز وجل أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا : إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد - ﷺ - وما جاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم : صدقنا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وما جاء به - مستهزءون ، يعنون أنا نظهر لهم ما هو عندنا باطل لا حق ولا هدى ، قالوا : وذلك هو معنى من معاني الاستهزاء فأخبر الله أنه يستهزئ بهم ، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا خلاف الذي لهم عنده في الآخرة ، كما أظهروا للنبي - ﷺ - والمؤمنين في الدين ما هم على خلافه في سرائرهم .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ **الله يستهزئ بهم** ﴾ قال : يسخر بهم للنقمة منهم(٢) .

---

(١) تفسير القرطبي (١ / ١٨٠) .

(٢) جامع البيان للطبري (١ / ١٣٣) .

قال ابن الجوزي :

والرابع : أن المراد به : يجازيهم على استهزائهم ، فقوبل اللفظ بمثله لفظا وإن خالفه معنى ، فهو كقوله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾[1] [الشورى : ٤٠] .

قال البقاعي :

ثم استأنفوا في موضع الجواب لمن قال : ما بالكم تلينون للمؤمنين ؟ قولهم : ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ أي : طالبون للهزء ، ثابتون عليه ، فيما نظهر من الإيمان ، والهزء : إظهار الجد وإخفاء الهزل قاله الحرالي ، فأجيب من كأنه قال : بماذا جوزوا ؟ بقوله : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ . أي : يجازيهم على فعلهم بالاستدراج ، بأن يظهر لهم من أمره المرذي لهم ، ما لا يدركون وجهه فهو يجري عليهم في الدنيا أحكام أهل الإيمان ، ويذيقهم في الدارين أعلى هوان مجددًا لهم ذلك بحسب استهزائهم ، وذلك أنكأ من شيء دائم توطن النفس عليه[2] .

قال الرازي :

إن ما يفعله الله بهم جزاءً على استهزائهم سماه بالاستهزاء ؛ لأن جزاء الشيء يسمى باسم ذلك الشيء قال تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وقال :وفيه أن الله تعالى هو الذي يستهزىء بهم استهزاء العظيم الذي يصير استهزاؤهم في مقابلته كالعدم .

وفيه أيضًا أن الله تعالى هو الذي يتولى الاستهزاء بهم ؛ انتقاما للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم باستهزاء مثله[3] .

---

(١) زاد المسير (١/٣٦) .

(٢) نظم الدرر (١ / ١١٥ ، ١١٦) .

(٣) مفاتيح الغيب (١ / ٤٤٨ ، ٤٤٩) .

قال سيد قطب :

هؤلاء المنافقون كانوا : ﴿ **إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾ ؛ أي بالمؤمنين ، بما نظهره من الإيمان والتصديق .

وما يكاد القرآن يحكي فعلتهم هذه وقولتهم ، حتى يصب عليهم من التهديد ما يهد الرواسي . ﴿ **الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ وما أبأس من يستهزىء به جبار السموات والأرض وما أشقاه !!....

وهنا كذلك تبدو الحقيقة التي أشرنا من قبل إليها ، حقيقة تولي الله سبحانه للمعركة التي يراد بها المؤمنون ، وما وراء هذا التولي من طمأنينة كاملة لأولياء الله ، ومصير رعيب بشع لأعداء الله الغافلين ، المتروكين في عماهم يخبطون المخدوعين بمد الله لهم في طغيانهم ، وإمهالهم بعض الوقت في عدوانهم والمصير الرعيب ينتظرهم هنالك وهم غافلون[1] .

قال القشيري :

أراد المنافقون أن يجمعوا بين عشرة الكفار وصحبة المسلمين ، فإذا برزوا للمسلمين قالوا : نحن معكم ، وإذا خَلَوْا بأضرابهم من الكفار أظهروا الإخلاص لهم ، فأرادوا الجمع بين الأمرين فَنُفُوا عنهما : قال الله تعالى : ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ [النساء : ١٤٣] . وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يلتئم ذلك ؛ فالضدان لا يجتمعان ، والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم ، وإذا ادلهم الليل من هاهنا ، أدبر النهار من ها هنا ، ومن كان له في كل ناحية خليط ، وفي زاوية من قلبه ربيط ، كان نهبا للطوارق ، ينتابه كل قوم فقلبه أبدًا خراب ، ولا له في التحقيق رزق من قلبه قال قائلهم :

أراكَ بقيةً من قوم موسى ... فهم لا يصبرونَ على طعام

(١) الظلال (١ / ٤٥) .

ولما قال المنافقون : ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ أي : يجازيهم على استهزائهم ، كذلك لما ألقى القوم أزمّتهم في أيدي الشهوات ، استهوتهم أودية التفرقة ، فلم يستقر لهم قدم على مقام ، فتطوحوا في متاهات الغيبة .

وكما يمد المنافقين في طغيانهم يعمهون ، يطيل مدة هؤلاء في مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم ، أطول ما كانوا أملا ، وأسوأ ما كانوا عملًا ، ذلك جزاء ما عملوا ؛ ووبال ما صنعوا وتحسين أعمالهم القبيحة في أعينهم من أشد العقوبات لهم ، ورضاؤهم بما فيه من الفترة[١] أجلّ مصيبة لهم[٢] .

[الآية الخامسة]

قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . إلا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ [البقرة : ١١ -١٢] .

قال ابن كثير : عن ابن عباس ، وعن مُرّة الطيب الهمداني ، عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ أما ﴿ **لا تفسدوا في الأرض** ﴾ قال : الفساد هو الكفر ، والعمل بالمعصية .

وعن أبي العالية : ﴿ **لا تفسدوا في الأرض** ﴾ لا تعصوا في الأرض . وكان فسادهم ذلك معصية الله .

وعن ابن عباس : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ : أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب .

يقول الله : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ يقول : ألا إن هذا الذي يتعمدونه ، ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ، ولكن من

---

(١) رجوع عن الإرادة وخروج منها ، أو سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل .
(٢) لطائف الإشارات (١ / ٦٤ ، ٦٥) .

جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً[١] .

قال ابن جرير :

﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ وهذا القول من الله جل ثناؤه تكذيب للمنافقين في دعواهم ، إذا أمروا بطاعة الله فيما أمرهم به ، ونهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه ، ﴿ **قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ لا مفسدون ، ونحن على رشد وهدى فيما أنكرتموه علينا دونكم لا ضالون . فكذبهم الله عز وجل في ذلك من قيلهم فقال : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون** ﴾ المخالفون أمر الله عز وجل ، المتعدون حدوده ، الراكبون معصيته ، التاركون فروضه ، وهم لا يشعرون ولا يدرون أنهم كذلك[٢] .

قال القشيري :

ويقال : كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال في وجهه : كذبت . فهم لمّا قالوا : إنما نحن مصلحون ، أكذَبَهم الحق سبحانه فقال : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ أنا نعلمهم فنفضحهم[٣] .

يقول سيد قطب :

﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا ...** ﴾ .

إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض** ﴾ لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد ، بل جاوزوه إلى التبجح والتبرير ﴿ **قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ ومن ثم يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾[٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٧٥) .
(٢) تفسير الطبري (١ / ١٢٧) .
(٣) لطائف الإشارات (١ / ٦٣) .
(٤) الظلال (١ / ٤٤) .

[الآية السادسة]

قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ [البقرة : ١٣] .

قال ابن كثير : يقول تعالى : ﴿ **وإذا قيل** ﴾ للمنافقين ﴿ **آمنوا كما آمن الناس** ﴾ أي : كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، والجنة والنار وغير ذلك ، مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر ، وترك الزواجر ، ﴿ **قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله - ﷺ - رضي الله عنهم . قاله أبو العالية والسدي في تفسيره ، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود ، وغير واحد من الصحابة ، وبه يقول الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم يقولون : أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة ، وعلى طريقة واحدة ، وهم سفهاء ؟!

والسفهاء جمع سفيه ، كما أن الحكماء جمع حكيم ، والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضارّ .

وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها ، فقال : ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم .

﴿ **ولكن لا يعلمون** ﴾ يعني : ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى[1] .

قال ابن جرير :

﴿ **وهم[2] يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ [الكهف : ١٠٤] . وذلك هو عين السفه ؛ لأن السفيه إنما يفسد من حيث يرى أنه يصلح ، ويضيع من حيث يرى أنه يحفظ ، فكذلك المنافق يعصي ربه من حيث يرى أنه يطيعه ، ويكفر به من حيث يرى أنه يؤمن به ، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يحسن إليها ، كما وصفهم ربنا جل ذكره ، فقال : ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٧٧) .　　(٢) المنافقون

﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ دون المؤمنين المصدقين بالله ، وبكتابه وبرسوله ، وثوابه ، وعقابه . ﴿ **ولكن لا يعلمون** ﴾[1] .

قال القشيري : إن المنافقين لما دعوا إلى الحق ، وصفوا المسلمين بالسفه ، وكذلك أصحاب الغنى إذا أمروا بترك الدنيا ، وصفوا أهل الرشد بالكسل والعجز ، ويقولون : إن الفقراء ليسوا على شيء ؛ لأنه لا مال لهم ولا جاه ، ولا راحة ، ولا عيش .

وفي الحقيقة هم الفقراء ، وهم أصحاب المحنة ، وقعوا في الذل مخافة الذل ، ومارسوا الهوان خشية الهوان ، وشيدوا القصور ، ولكن سكنوا القبور ، زينوا المهد ، ولكن أدرجوا اللحد ، ركضوا في ميدان الغفلة ، ولكن عثروا في أودية الحسرة ، وعن قريب سيعلمون ، ولكن حين لا ينفعهم علمهم ، ولا يغنيْ عنهم شيء .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ   أفــــرسٌ تحتك أم حمارُ[2]

يقول سيد قطب : وواضح أنهم كانوا يأنفون من هذا الاستسلام للرسول - ﷺ - ويرونه خاصًا بفقراء الناس ، غير لائق بالعلية ذوى المقام !

ومن ثم قالوا قولتهم هذه : ﴿ **أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ ؟!.. ومن ثم جاءهم الرد الحاسم والتقرير الجازم :

﴿ **ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾[3] .

[الآية السابعة]

قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** ﴾ [النساء : ١٤٥] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم شر أهلها ، بما جمعوا بين الكفر والنفاق ، ومخادعة الله والمؤمنين وغشهم ، فأرواحهم أسفل الأرواح ، وأنفسهم أخس الأنفس ، وأكثر الكفار قد أفسد فطرتهم التقليد ، وغلب عليهم

---

(١) تفسير الطبري (١٢٩/١) .   (٢) لطائف الإشارات (٦٣/١-٦٤).

(٣) الظلال (١ / ٤٤) .

الجهل بحقيقة التوحيد ، فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره ، باتخاذهم شفعاء عنده ، ووسطاء بينهم وبينه قياساً على ملوكهم المستبدين وأمرائهم الظالمين ، وهم لا يرضون لأنفسهم النفاق في الدين ، ومخادعة الله والمؤمنين ، والإصرار على الكذب والغش ومقابلة هذا بوجه ، وذاك بوجه . فلما كان المنافقون أسفل الناس أرواحًا وعقولًا ، كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل من النار .

﴿ **ولن تجد لهم نصيرًا** ﴾ ينقذهم من عذابها ، أو يرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها(١) .

يقول سيد قطب :

﴿ **في الدرك الأسفل** ﴾ إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب ، فلا ينطلقون ولا يرتفعون ، ثقلة المطامع والرغائب ، والحرص والحذر ، والضعف والخور ، الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ، ومداراة المؤمنين.. فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين ﴿ **في الدرك الأسفل من النار** ﴾ بلا أعوان هنالك ولا أنصار .. وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا فأنى ينصرهم الكفار(٢)؟!

قال القشيري :

لما أظهر المنافق ما هو مكر مع المؤمنين ، كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر بكفره ...

ويقال : نقلهم في آجلهم إلى أشد ما هم عليه في عاجلهم ..

فالمنافق اليوم في الدرك الأسفل من الهجر ، فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار ، والدرك الأسفل من الهجر اليوم - لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية ، وهذا هو البلاء الأكبر .

ويقال : استوجبوا ذلك ؛ لأنهم أساءوا الأدب في حال حضورهم بألسنتهم

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٥ / ٤٧٤) .

(٢) الظلال سيد قطب (٣ / ٧٨٥) .

وسوء الأدب يوجب الطرد[١] .

قاعدة هامة :

قال الشيخ محمد الصالح العثيمين حفظه الله :

إذا كانت الصفة كمالًا في حال ، ونقصًا في حال ، لم تكن جائزة في حق الله ، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق ، فلا تثبت له إثباتًا مطلقًا ، ولا تنفى عنه نفيًا مطلقًا ، بل لابد من التفصيل ، فتجوز في الحال التي تكون كمالًا ، وتمتنع في الحال التي تكون نقصًا ، وذلك كالمكر والخداع ونحوها ، فهذه الصفات تكون كمالًا إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها ؛ لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد ، وتكون نقصًا في غير هذه الحال ؛ ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق ، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها ، كقوله تعالى : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [الأنفال : ٣٠] وقوله : ﴿ **إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا** ﴾ [الطارق : ١٥ ، ١٦] . وقوله : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين** ﴾ [الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣] . وقوله : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقوله : ﴿ **إنما نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم** ﴾ [البقرة : ١٤ ، ١٥] .

ولهذا لم يذكر الله أنه خان من خانوه فقال تعالى : ﴿ **وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم** ﴾ [الأنفال : ٧١] . فقال : ﴿ **فأمكن منهم** ﴾ ولم يقل : فخانهم ؛ لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان ، وهي صفة ذم مطلقًا[٢] اهـ .

---

(١) لطائف الإشارات (١ / ٣٧٨ - ٣٧٩) .

(٢) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمد الصالح العثيمين ص٢٠ دار الكتب السلفية .

وقال الشيخ عمر سليمان الأشقر :

قد ورد في القرآن أفعال أطلقها الله – عز وجل – على نفسه على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة ، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال ، ولكن لا يجوز أن يشتق لله تعالى منها أسماء ، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات كقوله : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقوله : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ [آل عمران : ٥٤] . وقوله: ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾ [التوبة : ٦٧]. وقوله: ﴿**وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزىء بهم** ﴾ [البقرة : ١٤ ،١٥] . فلا يطلق على الله أنه مخادع ماكر ناسٍ ، مستهزىء ، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه ، ولا يقال : الله يستهزىء ، ويخادع ويمكر ، وينسى على سبيل الإطلاق ، وقد أخطأ الذين عدوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأ كبيرًا ؛ لأن الخداع والمكر يكون مدحًا ويكون ذمًا ، فلا يجوز أن يطلق على الله إلا مقيدًا بما يزيل الاحتمال المذموم عنه ، كما ورد مقيدًا في بعض الآيات[1] .

فالله لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، والمجازاة على ذلك يعتبر حسنة من المخلوق فكيف من الخالق[2] اهـ .

[الآية الثامنة]

قال تعالى : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [التوبة : ٧٩] .

قال ابن كثير: قوله: ﴿**فيسخرون منهم سخر الله منهم**﴾، وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم ، واستهزائهم بالمؤمنين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم

---

(١) معارج القبول (١ / ٧٦) .

(٢) العقيدة في الله للدكتور عمر سليمان الأشقر ص ١٨٧ ، ١٨٨ مكتبة الفلاح ودار النفائس .

معاملة من سخر بهم ؛ انتصارًا للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابًا أليمًا[١] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

قال تعالى في بيان جزاء هؤلاء اللامزين الساخرين : ﴿ **سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ هذا التعبير يسمى مشاكلة ، وما هو إلا العدل في جزاء المماثلة ، أي جزاهم بمثل ذنبهم فجعلهم سخرية للمؤمنين ، وللناس أجمعين ، بفضيحته لهم في هذه السورة ببيان هذا الخزي وغيره من مخازيهم وعيوبهم ، ولهم فوقه عذاب أليم ، تقدم بيانه في هذا السياق بهذا اللفظ وغيره[٢] .

قال القرطبي :

ومعنى : ﴿ **سخر الله** ﴾ مجازاتهم على سخريتهم[٣] .

قال الرازي :

وقال الأصم : المراد أنه تعالى قبل من هؤلاء المنافقين ما أظهروه من أعمال البر ، مع أنه لا يثيبهم عليها ، فكان ذلك كالسخرية[٤] .

قال سيد قطب :

﴿ **سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ ويا لهولها سخرية .. ويا لهولها عاقبة .. فمن شرذمة صغيرة هزيلة من البشر الضعاف الفانين .. وسخرية الخالق الجبار تنصب عليهم ، وعذابه يترقبهم ؟! ألا إنه للهول المفزع الرهيب[٥] .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

أسرّوا سرائر النفاق ، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، وفلتات

---

(١) تفسير القرآن الكريم (٤ / ١٢٨) .
(٢) تفسير المنار (١٠ / ٥٦٤) .
(٣) تفسير القرطبي (٥ / ٣٠٥٤) .
(٤) تفسير مفاتيح الغيب (٨ / ١١٣) .
(٥) الظلال (٣ / ١٦٨١) .

اللسان ، ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان ، وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقّاد ، كيف ؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾ [محمد : ٣٠] . فكيف إذا جمعوا ليوم التلاق ، وتجلى الله - جلّ جلاله - للعباد وقد كشف عن ساق؟ ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون. أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم ، وهو أدق من الشعرة ، وأَحَدُّ من الحسام . وهو دَحَض مزَلَّة ، مُظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطىء الأقدام . فقُسِّمت بين الناس الأنوارُ . وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب وأُعْطوا نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام . كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام . فلما توسطوا الجسر عَصَفَتْ على أنوارهم أهوية النفاق . فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح . فوقفوا حيارَى لا يستطيعون المرور . فضُرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب . ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح ، باطنه - الذي يلي المؤمنين - فيه الرحمة ، وما يليهم من قِبَلهم العذاب والنقمة . ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان ، ومشاعلُ الركب تلوح على بعد كالنجوم . تبدو لناظر الإنسان ﴿ **انظرونا نَقْتَبِس من نوركم** ﴾ [الحديد : ١٣] . لنتمكن في هذا المضيق من العبور . فقد طفئت أنوارنا . ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور ﴿ **قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا** ﴾ [الحديد : ١٣] . حيث قسمت الأنوار . فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار ! كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق ؟ فهل يلوي اليومَ أحد على أحد في هذا الطريق ! وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق ؟ فذكَّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار . كما يذكِّر الغريب صاحبَ الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿ **ألم نكن معكم** ﴾ [الحديد : ١٤] . نصوم كما تصومون ، ونصلي كما تصلون . ونقرأ كما تقرؤن ، ونتصدق كما تصدقون ونحج كما تحجون ؟ فما الذي فرق بيننا اليوم ، حتى انفردتم دوننا بالمرور ﴿ **قالوا بلى** ﴾ [الحديد : ١٤] . ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل

ملحد ، وكل ظلوم كفور ﴿ **ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربَّصْتُم وارتبتم وغرَّتكم الأماني حتى جاء أمرُ الله وغَرَّكم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فِدْية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير** ﴾ [الحديد : ١٤ ، ١٥] .

لا تستطل أوصاف القوم . فالمتروك والله ، أكثر من المذكور . كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم ؛ لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور . فلا خَلَت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات . وتتعطل بهم أسباب المعايش ، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات . سمع حذيفة رضي الله عنه رجلا يقول : اللهم أهلك المنافقين . فقال : « يا بن أخي ، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك » .

زرع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب ، وساقية الرياء . ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة ، وعين ضعف العزيمة . فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحكم نبات النفاق وبنيانه . ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرُف هار . فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلَى السرائر ، وكُشف المستور ، وبعثر ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور . تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق أن حواصله التي حَصَّلها كانت كالسراب ﴿ **يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾ [النور : ٣٩] . فهذه والله ، أمارات النفاق ، فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية ، إذا عاهدوا لم يفوا ، وإن وعدوا أخلفوا ، وإن قالوا لم ينصفوا ، وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنـزل الله وإلى الرسول صَدَفوا ، وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا ، فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان ، والخزي والخسران ، فلا تثق بعهودهم ، ولا تطمئن إلى وعودهم ، فإنهم فيها كاذبون ، وهم لما سواها مخالفون ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لَنَصَّدقن ولنكوننَّ من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله**

ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾[1] [التوبة : ٧٥ -٧٧] .

[الآية التاسعة]

قال تعالى : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءًا يُجز به ولا يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا** ﴾[النساء : ١٢٣] .

قال ابن كثير : قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ، فأنزل الله : ﴿ **ليس بأمانيكم ...** ﴾ ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ [النساء : ١٢٥] . فأفلج[2] الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان[3] .

قال القرطبي :

عن ابن عباس قال : قالت اليهود والنصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان منا، وقالت قريش: ليس نبعث، فأنزل الله: ﴿**ليس بأمانيكم ..**﴾[4] الآية.

قال القاسمي :

﴿ **ليس بأمانيكم** ﴾ أي : ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون ، أن تنفعكم الأصنام ﴿ **ولا أماني أهل الكتاب** ﴾ ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا : ﴿ **نحن أبناءُ الله وأحباؤه** ﴾ [المائدة : ١٨] . ﴿ **لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة** ﴾ [البقرة : ٨٠] . ﴿ **من يعمل سوءًا يُجز به** ﴾ أي:

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٥٦ - ٣٥٩) .

(٢) نصرها وأعلاها .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٣٦٩) .

(٤) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٦٦) .

من المشركين وأهل الكتاب بدليل قوله : ﴿ **ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرًا**﴾ وهذا وعيد للكفار؛ لأنه قال بعده: ﴿**ومن يعمل من الصالحات...**﴾[1] الآية [النساء : ١٢٤].

قال ابن الجوزي :

عن مجاهد : ... فأخبر الله عز وجل أن دخول الجنة والجزاء بالأعمال لا بالأماني[2] .

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ السوء هنا الشرك . قال الحسن : هذه الآية في الكافر وقرأ : ﴿ **وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ [سبأ : ١٧] .

وقال الضحاك : يعني اليهود والنصارى والمجوس وكفار العرب .

وقال الجمهور: لفظ الآية عام، والمؤمن والكافر مجازًى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار ؛ لأن كفره أوبقه.وأما المؤمن فبنكبات الدنيا ، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال : لما نزلت : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ **بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا ، فقال** رسول الله - ﷺ -: « **قاربوا وسددوا،** ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة ، حتى النكبة يُنكبها ، والشوكة يُشاكها »[3] .

قال البقاعي :

ولما كانت أمانيهم أنهم لا يُجازون بأعمالهم الخبيثة ، أنتج ذلك لا محالة قوله : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ أي : بالمصائب من الأمراض وغيرها عاجلًا ، إن أريد به الخير ، وآجلًا إن أريد به الشر[4] .

---

(١) محاسن التأويل (٥ / ١٥٧٣ ، ١٥٧٤) .

(٢) زاد المسير (٢/ ٢٠٩) .

(٣) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٦٦) .

(٤) نظم الدرر (٥ / ٤١٠) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

ليس شرف الدين وفضله ولا نجاة أهله به ، أن يقول القائل منهم : إن ديني أفضل وأكمل وأحق وأثبت ، وإنما عليه إذا كان موقنا به أن يعمل بما يهديه إليه ، فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمني والغرور[١] .

وقال :

﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ . والمعنى أن كل من يعمل سوءًا يلق جزاءه ؛ لأن الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف في أتباع بعض الأنبياء وينزل في غيرهم - كما يتوهم أصحاب الأماني والظنون[٢] .

قال سيد قطب :

ثم يعقب السياق بقاعدة الثواب الكبرى في العمل والجزاء .. إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولًا إلى الأماني .. إنه يرجع إلى أصل ثابت وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابي ، قانون تستوي أمامه الأمم ، فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر ، وليس أحد تخرق له القاعدة وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون .. إن صاحب السوء مجزي بالسوء وصاحب الحسنة مجزيٌّ بالحسنة ، ولا محاباة في هذا ولا مماراة[٣] .

قال القشيري :

من زرع الحنظل لم يجْتَن الورد والعبهر[٤] ، ومن شرب السم الزعاف لم يجد طعم العسل ، كذلك من ضَيَّع حق الخدمة ، لم يستمكن على بساط القربة ، ومَنْ وُسِمَ بالشقوة ، لم يُرزق الصفوة ، ومن نفته القضية ، فلا ناصر له من البرية .

قوله : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات** ... ﴾ مَنْ تَعنّى في خدمتنا ، لم

---

(١) المنار (٥ / ٤٣٢) .

(٢) السابق (٥ / ٢٣٤) .

(٣) الظلال (٢ / ٧٦٢) .

(٤) العبهر : الياسمين وقيل : النرجس .

يبق عن نيل نعمتنا ، من عنَّيناه في طلبنا ، أكرمناه بجودنا ، بل من جرَّعناه كأس اشتياقنا ، أنلناه أنس لقائنا[١] .

قال البقاعي :

ولما أبدى جزاء المسيء تحذيرًا ، أولاه أجر المحسن تبشيرا ، فقال . ﴿ **ومن يعمل ...** ﴾[٢] [النساء : ١٢٤] .

○ ﴿ **من يعمل سوءًا يُجز به** ﴾ [النساء : ١٢٣] ○

يا معرضًا عن الهدى لا يسعى في طلبه ، يا مشغولًا بلهوه مفتونًا بلعبه ، يا من قد صاح به الموت عند أخذ صاحبه : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ ..

جُز على قبر الصديق ، وتلمح آثار الرفيق ، يخبرك عن حسنه الأنيق ، أنه استُلب بكف التمزيق ، هذا لحده وأنت غدًا بهْ .. ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

كم نُهي عن الخطايا وما انتهى ، وكم زجرته الدنيا وهو يسعى لها ، هذا ركنه القويم قد وهى ، وها أنت في سلبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

أين من عتا وظلم ، ولقي الناس منه الألم ، اقتطعه الردى اقتطاع الجلم ، فما نفعه ما جمع ، لا والله ، لم يدفع عنه عز منصبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

بات في لحده أسيرًا ، لا يملك من الدنيا نقيرًا ، بل عاد بوزر ذنبه عقيرا ، وأصبح من ماله فقيرا ، على عز نسبه ، وكثرة نشبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

اللذات تفنى عن قليل وتمرّ ، وآخر الهوى الحلو مرّ ، وليس في الدنيا شيء يَسُرّ ، إلا يغرّ ويضرّ ، ثم يخلو ذو الزلل بمكتسبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾.

الكتاب يحوي حتى النظرة ، والحساب يأتي على الذرة ، وخاتمة كأس

---

(١) لطائف الإشارات (١ / ٣٦٦ ، ٣٦٧) .

(٢) نظم الدرر (٥ / ٤١١) .

اللذات مرة ، والأمر جلي للفهوم ما يشتبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾

تقوم في حشرك ذليلًا ، وتبكي على الذنوب طويلًا ، وتحمل على ظهرك وزراً ثقيلًا والويل للعاصي من قبيح منقلبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

يجمع الناس كلهم في صعيد ، وينقسمون إلى شقي وسعيد ، فقوم قد حل بهم الوعيد ، وقوم قيامتهم نزهة وعيد ، وكل عامل يغترف من مشربه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يُجز به** ﴾ .

إنما يقع الجزاء على أعمالك ، وإنما تلقى غدًا غبّ أفعالك ، وقد قصدنا إصلاح حالك ، فإن كنت متيقظًا فاعمل لذلك ، وإن كنت نائمًا فانتبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

[الآية العاشرة]

قال تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالًا من الله والله عزيز حكيم** ﴾ [المائدة : ٣٨] .

قال ابن كثير : ﴿ **جزاء بما كسبا** ﴾ أي : مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك .

والجزاء من جنس العمل[1] .

قال سيد قطب :

وعلة فرض عقوبة القطع للسرقة ؛ أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر في أن يزيد كسبه بكسب غيره ، فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ، ويريد أن ينميه عن طريق الحرام ... وهو لا يكتفي بثمرة عمله ، فيطمع في ثمرة عمل غيره . فالدافع الذي يدفع إلى السرقة هو زيادة الكسب ، أو زيادة الثراء ... وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع ؛ لأن قطع اليد أو الرجل يؤدي إلى نقص الكسب ، إذ اليد أو الرجل كلاهما أداة

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ١٠٣) .

عمل أيًا كان . ونقص الكسب يؤدي إلى نقص الثراء ، وهذ يؤدي إلى نقص القدرة على الإنفاق والظهور ، ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل ، والتخوف على المستقبل[١] .

[الآية الحادية عشرة]

قال تعالى : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ [الأنعام : ١١٠] .

قال ابن القيم : هذا عطف على قوله : ﴿ **أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ [الأنعام : ١٠٩]. أي: تحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله : ﴿ **كما لم يؤمنوا به أول مرة** ﴾ فقال كثير من المفسرين : المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ، قال ابن عباس في رواية عطاء عنه : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي . قال : وهذا كقوله : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

وقال آخرون : المعنى ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ لتركهم الإيمان به أول مرة ، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم . وهذا معنى حسن . فإن كاف التشبيه تتضمن نوعًا من التعليل ، كقوله : ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ [القصص : ٧٧] . وقوله : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون . فاذكروني أذكركم** ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] . والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر[٢] .

فهذا نص من شيخ الإسلام في تفسيرها بأن الجزاء من جنس العمل .

---

(١) الظلال (٢ / ٨٨٤) .

(٢) التفسير القيم ص ٢٢٦ .

[الآية الثانية عشرة]

قال تعالى : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون** ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

قال ابن كثير :

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس؛ تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم ببعضهم من بعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم[(١)] .

قال البقاعي : ولّى الكفرة من ظالمي الجنّ ظالمي الإنس ، وسلطهم عليهم ، هذا عمله مع كل ظالم من أي قبيل ، يجمع بين الأشكال في الأوصاف الباطنة والخصال ، ويسلط بعضهم على بعض في الضلال والإضلال والأوجاع والأنكال ، بما كانوا بجبلاتهم يكسبون ، بسبب اجتماعهم في الطباع التي طبعناهم عليها يجتمعون ، وينقاد بعضهم لبعض ، حتى صارت أعمالهم كلها في غير مواضعها ، فيظلم بعضهم بعضًا ، ويهلك بعضهم بعضًا .

يولي بعض الظلمة بعضا ليهينهم؛ بسبب ما كانوا يتعاطونه من مساوي الأعمال، ورديء الخلال، وغث الخصال، فيؤديهم إلى مهلك الأوجاع والأوجال[(٢)].

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

روى أبو الشيخ عن الأعمش عن قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا** ﴾ قال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الناس أمّر عليهم شرارهم . والأعمش تابعي فهو إنما يسأل عن أقوال الصحابة وكبار التابعين[(٣)] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٣٣٢) .

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٧ / ٢٧٠ - ٢٧١) .

(٣) تفسير المنار (٨ / ١٠٢) .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

هو من قبيل قوله: ﴿نوله ما تولى﴾ [النساء: ١١٥] أي: نلزمه ما ألزم نفسه.

قال المفسرون : يجوز أن يكون معنى ﴿ نولي بعض الظالمين بعضًا ﴾ نجعل بعضهم ولاة على بعض ؛ أي نسلط بعضهم على بعض ، والمعنى أنه جعل الجن وهم ظالمين مسلّطين على المشركين ، والمشركون ظالمون ، فكل يظلم بمقدار سلطانه ، والمراد بالظالمين في الآية المشركون .

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كل ظالم ، فتدلّ على أن الله سلّط على الظالم من يظلمه ، وقد تأوّلها على ذلك عبد الله بن الزبير أيّام دعوته بمكة ؛ فإنه لمّا بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عَمْرو بن سعيد الأشدق ، بعد أن خرج عمرو عليه ، صعد المنبر فقال : ألا إن ابن الزرقاء – يعني : عبد الملك بن مروان ؛ لأن مروان كان يلقب بالأزرق وبالزرقاء ، لأنه أزرق العينين – قد قتل لَطِيم الشيطان[١] ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ .

ومن أجل ذلك قيل : إن لم يقُلع الظالم عن ظلمه سُلّط عليه ظالم آخر .

قال الفخر : إن أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم .

وقد قيل : وما ظالم إلا سَيُبْلى بظالم[٢] .

[الآية الثالثة عشرة]

قال تعالى : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾ [الأنعام : ١٣٩] .

قال الرازي :

هذا نوع رابع من أنواع قضاياهم الفاسدة ، كانوا يقولون في أجنة البحائر

---

(١) كلمة يُنبّز بها عمرو بن سعيد ؛ لاعوجاج في شدقه فلقبوه الأشدق . وقالوا : لطمه الشيطان .

(٢) التحرير والتنوير (٨ / ٧٣ – ٧٤) .

والسوائب : ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور ، لا تأكل منها الإناث ، وما ولد ميتا اشترك فيه الذكور والإناث . ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ والمراد منه الوعيد . ﴿ **إنه حكيم عليم** ﴾ ليكون الزجر واقعًا على حد الحكمة ، وبحسب الاستحقاق(١) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ **سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم** ﴾ يقال : جزاء كذا ، وبكذا ؛ أي جعله جزاء له على عمله ، قال تعالى : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا** ﴾ [الفرقان : ٧٥] . وقال : ﴿ **فذلك نجزيه جهنم** ﴾ [الأنبياء : ٢٩] . وقال : ﴿ **هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ [يونس : ٥٢] . وقال : ﴿ **هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [النمل : ٩٠] . وجعل الجزاء عين العمل ، وقد تكرر في سورةٍ أخرى ، وقدروا له كلمة جزاء ، أو ثواب أو عقاب بناء على أن العمل هو ما يجازى عليه ، لا ما يجازى به(٢) .

[الآية الرابعة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ [الأعراف : ٥١] .

قال ابن جرير : يقول الله جلّ ثناؤه : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : ففي هذا اليوم ، وذلك يوم القيامة ننساهم ، يقول : نتركهم في العذاب المبين جياعًا عطاشًا ، بغير طعام ولا شراب ، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ، ورفضوا الاستعداد له بإتعاب أبدانهم في طاعة الله ..

عن مجاهد ﴿ **فاليوم ننساهم** ﴾ قال : نُسوا في العذاب ،.. وعنه : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا(٣) .

---

(١) مفاتيح الغيب (٥ / ٥٩٧) .
(٢) تفسير المنار (٨ / ١٢٩) .
(٣) تفسير الطبري (٥ / ٢٠٢) .

قال ابن كثير :

قوله : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : نعاملهم معاملة من نسيهم ؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿ **في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى** ﴾ [طه : ٥٢] .

وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ، كما قال : ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وقال : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه : ١٢٦] . وقال تعالى : ﴿ **اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾(١) [الجاثية : ٣٤] .

قال الرازي :

إن معنى ﴿ننساهم كما نسوا﴾ أي : نعاملهم معاملةَ مَنْ نسيَ، فنتركهم في النار كما فعلوا هم في الإعراض بآياتنا ، وبالجملة فسمى الله جزاء نسيانهم بالنسيان ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] ، والمراد من هذا النسيان أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم . ثم بين تعالى أن كل هذه التشديدات إنما كان لأنهم كانوا بآياتنا يجحدون(٢) .

قال القرطبي :

﴿ **فاليوم ننساهم** ﴾ أي : نتركهم ﴿ **كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : تركوا العمل به وكذبوا به و« ما » مصدرية ، أي : كنسيهم ﴿ **وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ عطف عليه ، أي : وجحدهم(٣) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ هذا من قول الله عز وجل ، مرتب على ما قبله ترتب المسبب على السبب ، والمراد باليوم : يوم الجزاء ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٢٠) .

(٢) مفاتيح الغيب (٧ / ٩٠) .

(٣) تفسير القرطبي (٤ / ٢٦٥٢ - ٢٦٥٣) .

وهو محدود بالعمل الذي هو الجزاء ، وإن لم يعرف له مقدار ، والمراد نعاملهم معاملة المنسي الذي لا يفتقده أحد ، كما جعلوا هذا اليوم منسيا ، أو كالمنسي بعدم الاستعداد والتزود له ، والظاهر أن الكاف هنا للتعليل ، كقوله : ﴿ **واذكروه كما هداكم** ﴾ [البقرة : ١٩٨] . أي : لهدايته لكم - لا للتشبيه - على أنه يصح في هذه الجملة على حد المثل : الجزاء من جنس العمل[١] .

قال القشيري :

كما تركوا أمره وضيعوه تركهم في العقوبة ، فتأتي عليهم الأحقاب ، فلا كشف عذاب ، ولا بَرْد شراب ، ولا حسن جواب ، ولا إكرامٌ بخطاب ، ذلك جزاءٌ لمن لم يعرف قَدْر الوصلة في أوقات المهلة[٢] .

عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما - قالا : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له : ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، فكنت تظن أنك مُلاقي يومك هذا ؟ فيقول : لا . فيقول الله : اليوم أنساك كما نسيتني »[٣] .

[الآية الخامسة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ [النساء : ٨٥] .

قال القاسمي :

﴿ **من يشفع شفاعة حسنة** ﴾ أي : يتوسط في أمر ، فيترتب عليه خير ، من دفع ضر أو جلب نفع ؛ ابتغاء لوجه الله تعالى ، ومنه حمل المؤمنين على قتال الكفار .

﴿**يكن له نصيب منها**﴾ وهو ثواب الشفاعة، والتسبب إلى الخير الواقع بها.

---

(١) تفسير المنار (٨ / ٤٤٠) .

(٢) لطائف الإشارات (أ / ٥٣٩) .

(٣) صحيح : رواه الترمذي ، ورواه أحمد ومسلم وابن خزيمة .

﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة** ﴾ وهي ما كانت بخلاف الحسنة ، بأن كانت في أمر غير مشروع .

﴿ **يكن له كفل منها** ﴾ أي : نصيب من وزرها الذي ترتب على سعيه ، مساوٍ لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء[١] .

قال ابن كثير :

وقوله : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها** ﴾ أي : من سعى في أمر ، فترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك .

﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها** ﴾ أي : يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء » .

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض .

وقوله : ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ قال ابن عباس : ﴿ **مقيتا** ﴾ أي: حفيظًا ، وقال مجاهد : شهيدا ، وفي رواية عنه : حسيبا .

وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن رواحة - وسأله رجل عن قول الله : ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ قال : يقيت[٢] كل إنسان على قدر عمله[٣] .

قال الرازي :

فبين تعالى في هذه الآية أن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، والغرض منه بيان أنه عليه الصلاة والسلام لما حرضهم على الجهاد ، فقد

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٥ / ١٤١٩) .

(٢) ومعنى المقيت في الحديث: يعطي قوت كل منهم، من أقاته يقيته إذا أعطاه قوته أو المعنى: يحفظ كلا منهم .

(٣) ابن كثير (٢ / ٣٢٤) .

استحق بهذا التحريض أجرًا عظيمًا[١] .

قال ابن جرير :

عن الحسن قال : من يشفع شفاعة حسنة كتب له أجرها ، ما جرت منفعتها[٢] .

قال القرطبي :

وقيل : المعنى من يكن شفعًا لصاحبه في الجهاد يكن له نصيبه من الأجر ، ومن يكن شفعا لآخر في باطل يكن له نصيبه من الوزر . وعن الحسن أيضًا: الحسنة ما يجوز في الدين ، والسيئة ما لا يجوز فيه ، وكأنّ هذا القول جامع ..

وقال : والشافع يؤجر فيما يجوز وإن لم يُشفّع ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ **من يَشْفَع** ﴾ ولم يقل : يُشَفَّع[٣] .

وقال سيد قطب :

فالذي يشجع ويحرض على القتال في سبيل الله ، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها ، والذي يبطىء ويثبط ، تكون له تبعة فيها وفي آثارها .. وكلمة كفل توحي بأنه متكفل بجزائها[٤] .

قال القاسمي :

اختيار النصيب في الحسنة والكفل في السيئة ، ما أشرنا إليه ، وذلك أن النصيب يشمل الزيادة ؛ لأن جزاء الحسنات يضاعف ، وأما الكفل فأصله المركب الصعب ، ثم استعير للمثل المساوي ، ولذا اختير إشارة إلى لطفه بعباده إذ لم يضاعف السيئات كالحسنات[٥] .

قال الألوسي

في قوله تعالى : ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ :

عن الجبائي : أنه المجازي ؛ أي : يجازي على كل شيء من الحسنات

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٤٨/٥) . (٢) تفسير الطبري (٤ / ١٨٦) .
(٣) تفسير القرطبي (٣/ ١٨٦٥) . (٤) الظلال (٢/ ٧٢٥) .
(٥) محاسن التأويل (٢/ ١٤٢٢) .

والسيئات[١] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

وحاصل معنى الجملة : وكان الله - وما زال - على كل شيء مقيتا ؛ أي : مقتدرًا ومقدّرا ، فهو لا يعجزه أن يعطي الشافع نصيبًا ، أو كفلا من شفاعته ، على قدرها في النفع والضر ؛ لأن سننه الحكيمة مضت بأن يكون هذا الجزاء مرتبطًا بالعمل .

أو : شهيدًا حفيظًا على الشفعاء لا يخفى عليه أمر محسنهم و مسيئهم ، فهو يعطي الجزاء على قدر العمل[٢]. اهـ .

يعطي الجزاء على قدر العمل ، ومن جنسه ﴿ **يكن له نصيب منها** ﴾ ﴿ **يكن له كفل منها** ﴾ .

قال القشيري :الشفيع يخلّص للمشفوع له حالَه ، ويستوجب الشفيع - من الله سبحانه - على شفاعته عظيم الرتبة ، ومن سعى في أمرنا بالفساد ، تحمّل الوزر واحتقب الإثم[٣] .

[الآية السادسة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

قال ابن جرير : ويعني بقوله : ﴿ **فله عشر أمثالها** ﴾ فله عشر حسنات أمثال حسنته التي جاء بها .

﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ يقول : ومن وافى يوم القيامة منهم بفراق الدين الحق ، والكفر بالله ، فلا يجزى إلا ما ساءه من الجزاء ، كما وافى الله به من عمله السيىء ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ يقول: ولا يظلم الله الفريقين : لا فريق الإحسان،

---

(١) روح المعاني (٥ / ٩٨) .

(٢) المنار (٢ / ٣١١) .

(٣) لطائف الإشارات (١ / ٣٥٠) .

ولا فريق الإساءة ، بأن يجازي المحسن بالإساءة ، والمسيء بالإحسان ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له ؛ لأنه جلّ ثناؤه حكيم ، لا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه ، ولا يجازي أحدًا إلا بما يستحق من الجزاء[١] .

قال القرطبي :

والحسنة هنا : الإيمان ؛ أي من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله ، فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب .

﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ يعني : الشرك ﴿ **فلا يجزى إلا مثلها** ﴾ وهو الخلود في النار ؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، والنار أعظم العقوبة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **جزاء وفاقا** ﴾ يعني : جزاء وافق العمل .. ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ أي : لا ينقص ثواب أعمالهم[٢] .

قال القاسمي :

قال القاشاني في قوله تعالى : ﴿ **فله عشر أمثالها** ﴾: هذا أقل درجات الثواب ، وذلك أن الحسنة تصدر بظهور القلب ، والسيئة بظهور النفس ، فأقل درجات ثوابها أنه يصل إلى مقام القلب ، الذي يتلو مقام النفس في الارتقاء ، تلو مرتبة العشرات للآحاد في الأعداد .

وأما في السيئة فلأنه لا مقام أدون من مقام النفس ، فينحط إليه بالضرورة ، فيجزى جزاءه في مقام النفس بالمثل[٣] .

قال سيد قطب :

وبمناسبة الحساب والجزاء ، قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده ، فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن – فليس مع الكفر حسنة – ﴿ **فله عشر أمثالها** ﴾ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴿ **ولا يظلم ربك أحدًا** ﴾[الكهف : ٤٩] ولا يبخسه حقه .

---

(١) تفسير الطبري (٨ / ١٠٧) . (٢) تفسير القرطبي (٤ / ٢٥٨٧) .

(٣) تفسير القاسمي محاسن التأويل (٦ / ٢٥٨٨) .

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾[١] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ أي : ومن جاء ربه يوم القيامة بالصفة السيئة التي يطبعها في نفسه الكفر ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، فلا يجزى إلا عقوبة سيئة مثلها ، بحسب سنته تعالى في تأثير الأعمال السيئة في تدسية النفس وإفسادها ، وتقديره الجزاء عليها بالعدل[٢] .

قال القشيري :

قوله: **﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾** .

ويقال : الحسنة من فضله تعالى تصدر ، وبلطفه تحصل ، فهو يجري ، ثم يقبل ويُثني ، ثم يُجازي ويُعطي .

ويقال : إحسانه – الذي هو التوفيق – يوجب إحسانك الذي هو الوفاق .

وإحسانه – الذي هو خلق الطاعة – يوجب لك نعت الإحسان الذي هو الطاعة فالعناء منك فعله ، والجزاء لك فضله .

وقوله جلّ ذكره : **﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾** .

يعني : يُكال عليه بالكيل الذي يكيل ، ويوقَفُ حيث يرضى لنفسه أن يكون له موقفا[٣] .

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) الظلال (٣ / ١٢٤٠) .
(٢) تفسير المنار (٨ / ٢٣٤) .
(٣) لطائف الإشارات (١ / ٥١٣ ، ٥١٤) .

[الآية السابعة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ أي : إن رحمته تعالى الفعلية ، التي يعبر عنها بالإحسان قريبة من المحسنين في أعمالهم المتقنين لها ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن في العبادة نال حسن الثواب ، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح ، ومن أحسن في الدعاء استجيب له ، أو أعطي خيرًا مما طلبه ...

والإحسان مطلوب في كل شيء بهدي دين الفطرة، الداعي لحسنتي الدنيا والآخرة.

وجزاؤه الإحسان في كل شيء بحسبه ، قال الله عز وجل : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الرحمن : ٦٠] كما أن الإساءة محرمة في كل شيء ، وجزاؤها من جنسها ، قال عز وجل : ﴿ **ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾[1] [النجم : ٣١] .

[الآية الثامنة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ [التوبة : ٨٢] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

والمعنى على هذا فليكونوا بقدرتنا وتقديرنا قليلي الضحك ، كثيري البكاء ؛ لأن سبب سرورهم وفرحهم بتخلفهم ونفاقهم قد زال ، وأعقبهم الفضيحة والنكال ، ويؤيد كونه تكوينًا قدريًّا ، لا تكليفًا شرعيًّا ، جعله عقابا جزائيا لهم على عملهم بقوله : ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ فإن جزاء كل عمل من جنسه ، وكما يدين المرء يدان[2] .

---

(١) تفسير المنار (٨ / ٤٦٢) .

(٢) تفسير المنار (١٠ / ٥٧١) .

[الآية التاسعة عشرة]

قال تعالى : ﴿ فإن رجَعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معيَ أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ [التوبة : ٨٣] .

قال ابن كثير : ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا ﴾ أي تعزيرًا لهم وعقوبة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١١٠] . فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها ، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ..

وقوله تعالى : ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ قال ابن عباس : أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة[١] .

والجزاء من جنس العمل ، فكما رضوا بالقعود أول مرة فليقعدوا ولا يخرجوا أبدًا .

[الآية العشرون]

قال تعالى : ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

قال القرطبي : ﴿ ويمكرون ﴾ . والمكر : التدبير في الأمر في خفية .

﴿ والله خير الماكرين ﴾ .. والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون[٢] .

قال ابن جرير : عن ابن إسحاق قوله : ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ : أي فمكرت لهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ١٢١ - ١٢٢) .

(٢) تفسير القرطبي (٤ / ٢٨٣٣) .

(٣) تفسير الطبري (٦ / ٣٢٠) .

والجزاء من جنس العمل .

قال القشيري :

والمكر إظهار الإحسان مع قصد الإساءة في السر ، والمكر من الله الجزاء على المكر[١] .

قال سيد قطب : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾ . صورة عميقة التأثير .. ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون ، والله من ورائهم محيط يمكر بهم ويبطل كيدهم .. وهم لا يشعرون ...

فأين هؤلاء البشر .. الضعفاء المهازيل .. من تلك القدرة القادرة .. قدرة الله الجبار القاهر فوق عباده الغالب على أمره .. وهو بكل شيء محيط[٢]؟..

[الآية الحادية والعشرون]

قال الله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين** ﴾ [الأنفال : ٥٣ ، ٥٤] .

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه ، بأن الله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال** ﴾ [الرعد : ١١] ، وقوله : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ أي : كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات ، وعيون ، وزروع ، وكنوز ، ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين[٣] .

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري (١/٦٢٠). (٢) الظلال لسيد قطب (٣/١٥٠١).

(٣) تفسير ابن كثير (٤ / ٢١) .

[الآية الثانية والعشرون]

قال الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢] .

قال العلامة ابن كثير : هذا مثل أريد به أهل مكة ؛ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها آمن لا يخاف ، كما قال تعالى : ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتَخطَّفْ من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا** ﴾ [القصص : ٥٧] ، وهكذا قال ها هنا : ﴿ **يأتيها رزقها رغدا** ﴾ هنيئًا سهلًا ﴿ **من كل مكان فكفرت بأنعم الله** ﴾ أي : جحدت آلاء الله عليها ، وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾ [إبراهيم: ٢٧،٢٨]. ولهذا بدّلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿**فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع ، بعد أن كان يُجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، وذلك لما استعصوا على رسول الله – ﷺ – وأبوا إلا خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العِلْهز(١)؛ وهو وبر البعير، يجعل بدمه.

وقوله : ﴿ **والخوف** ﴾ وذلك بأنهم بُدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابه ، حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوة سراياه وجيوشه ، وجعلوا كل ما لهم في سفال ودمار ، حتى فتحها الله عليهم ، وذلك بسبب صنيعهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم ، وامتن به عليهم في قوله : ﴿ **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم** ﴾ .

(١) في النهاية لابن الأثير : « العلهز » هو شيء يتخذونه في سني المجاعة ، يخلطون الدم بأوبار الإبل ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه . وقيل : العلهز شيء ينبت ببلاد بني سليم ، له أصل كأصل البردي .

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ، ورزقهم بعد العَيْلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم ، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم .

وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة ، قاله العوفي ، عن ابن عباس ، وإليه ذهب مجاهد، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله(١) .

يقول الشيخ سيد قطب : ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ؛ لأن الذوق أعمق أثرا في الحس من مساس اللباس للجلد ، وتتداخل في التعبير استجابات الحواس ، فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ، ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس .

يقول البقاعي في نظم الدرر :

صار الجوع بشموله لهم لباسا ، وبشدة عركهم ذواقا ، فكأن النظر إلى المستعار له ، وهو هنا أبلغ لدلالته على الإحاطة والذوق ، ولو نظر إلى المستعار لقال : فكساها ، فكان يفوت الذوق ، فبانت فضيحة ابن الراوندي في زندقته حين قال لابن الأعرابي : هل يذاق اللباس ؟. فقال له : لا بأس أيها النسناس ! هب أن محمدًا ما كان نبيًّا أما كان عربيًّا(٢) .

[الآية الثالثة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآياتٍ للمتوسمين** ﴾ [الحجر : ٧٥] .

قال ابن القيم : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة ، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ [النور : ٣٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٥٢٧ – ٥٢٨) .

(٢) نظم الدرر (١١ / ٢٦٥ – ٢٦٦) .

وسر هذا ، أن الجزاء من جنس العمل ، فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه تعالى من جنسه ، ما هو خير منه ، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات ، أطلق الله نور بصيرته وقلبه ، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى .

قال أبو شجاع الكرماني : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وكف نفسه عن الشهوات ، وغض بصره عن المحارم ، واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة .

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾[1] [النور : ٣٥] .

قال ابن القيم :

وسببها : نور يقذفه الله في قلب عبده ، يفرق بين الحق والباطل ، والحالي والعاطل والصادق والكاذب .

وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضادّه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : العزيز في يوسف ، حيث قال لامرأته : ﴿ **أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ [يوسف : ٢١] ، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها : ﴿ **استأجره** ﴾ [القصص : ٢٦] ، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه . وفي رواية أخرى : امرأة فرعون حين قالت : ﴿ **قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾[2] [القصص : ٩] ، وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة . وبعده عمر رضي الله عنه ، ووقائع فراسته مشهورة . فإنه ما قال لشيء : أظنه كذا . إلا

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٤٨) .

(٢) رضي الله عن ابن مسعود . بل أفرس الناس خديجة رضي الله عنها في رسول الله عند بدء نزول الوحي .

كان كما قال . ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع المعروفة .

كان الجنيد يومًا يتكلم على الناس ، فوقف عليه شاب نصراني متنكرًا . فقال : أيها الشيخ ما معنى قول النبي ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله »(١) فأطرق الجنيد ، ثم رفع رأسه إليه . وقال : أسلم . فقد حان وقت إسلامك . فأسلم الغلام(٢) .

[الآية الرابعة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [النمل : ٩٠] .

قال القرطبي : هل تجزون إلا جزاء أعمالكم .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

ومقتضى الظاهر أن يقال : هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون . فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدم ؛ وهو أن الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم ، وما العقيدة إلا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة(٣) .

[الآية الخامسة والعشرون]

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ [التحريم : ٧] .

[الآية السادسة والعشرون]

وقال تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون** ﴾ [الطور : ١٩] .

قال الفخر الرازي : إن قيل: قال في حق الكفار: ﴿ **إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ وقال في حق المؤمنين : ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ فهل بينهما فرق ؟

قلت : بينهما بون عظيم من وجوه :

---

(١) حول الحديث كلام كثير في نسبته له ﷺ . وهو ضعيف.

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٤ - ٤٨٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٠ / ٥٣) .

الأول : كلمة ﴿ **إنما** ﴾ للحصر ؛ أي لا تجزون إلا ذلك ، ولم يذكر هذا في حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ما عمل ، ويزيده من فضله ، وحينئذ إن كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالأكل والشرب .

الثاني : قال هنا : ﴿ **بما كنتم** ﴾ وقال هناك : ﴿ **ما كنتم** ﴾ أي تجزون عين أعمالكم إشارة إلى المبالغة في المماثلة ، كما تقول : هذا عين ما عملت .

وقال في حق المؤمن : ﴿ **بما كنتم** ﴾ ، كأن ذلك أمر ثابت ، مستمر بعملكم هذا .

الثالث : ذكر الجزاء هناك ، وقال هاهنا : ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ ؛ لأن الجزاء ينبيء عن الانقطاع فإن من أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئًا آخر .

فإن قيل : فالله تعالى قال في مواضع : ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [الواقعة : ٢٤] في الثواب .

نقول : في تلك المواضع لما لم يخاطب المجزي لم يقل نجزي ؛ وإنما أتى بما يفيد العلم بالدوام وعدم الانقطاع[(١)] اهـ .

قال البقاعي في نظم الدرر : ولا يبعد على الله في أن يصور لكل إنسان صورة عمله ، بحيث لا يشك أنها عمله ، ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذي يجد فيه من الألم ما علم سبحانه أنه بمقدار استحقاقه[(٢)] اهـ .

والجزاء من جنس العمل .

[الآية السابعة والعشرون]

قال تعالى: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا**﴾ [الأحزاب: ٧٢].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤ / ٥٧٠ - ٥٧١) .

(٢) نظم الدرر (٢٠ / ١٩٩ - ٢٠٠) .

قال القشيري : ويقال : لمّا حمل آدم الأمانة وأولاده ، قال تعالى : ﴿ وحملناهم في البر والبحر ﴾ [الإسراء : ٧٠] .. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان(١) ؟.

وقال أيضًا :

ويقال : لمّا حمل بنو آدم الأمانة ، حملناهم في البر ، فحملٌ هو جزاء حملٍ ، حملٌ هو فعل من لم يكن ، وحملٌ هو فضلُ مَنْ لم يزل(٢) .

[الآية الثامنة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءٰى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون** ﴾ [الروم : ١٠] .

قال ابن كثير : أي كانت السوءى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون(٣) .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

والمعنى : ثم عاقبة كل من أساءوا السوءٰى مثلهم ، فيكون تعريضًا بالتهديد لمشركي العرب كقوله تعالى : ﴿ **دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾ [محمد : ١٠] فالمراد بالذين أساءوا السوءى كل مسيء من جنسَ تلك الإساءة وهي الشرك ..

وقال : أي أن سبب عاقبتهم السوءى هو إساءتهم . وأصل الكلام : ثم كان عاقبتهم السوءى(٤) .

---

(١) لطائف الإشارات (٥ / ١٧٣) .

(٢) من لم يكن هو الإنسان ، ومن لم يزل هو الرب سبحانه ، لطائف الإشارات (٤ / ٣٣) .

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٣١٣) .

(٤) التحرير والتنوير (٢١ / ١٥) .

قال البقاعي :

﴿ ثم كان ﴾ أي : كونا تعذر الانفكاك عنه ، وهو في غاية الهول ﴿ عاقبة ﴾ أي : آخر أمر ﴿ الذين أساءوا السوءى ﴾ أي الحالة التي هي أسوأ ما يكون ، وهي خسارة الأنفس بالدمار في الدنيا ، والخلود في العذاب في الآخرة ، جزاءً لهم بجنس أعمالهم ، فإنهم كما أساءوا الرسل ساءهم الملك ؛ لأجل تكذيبهم الرسل ، مستهينين بآيات الله المنسوبة إلى الملك الأعلى ، الذي له الكمال كله ، الدالة على عظمها بعظمه ﴿ وكانوا ﴾ أي : كونا كأنه جبلة لهم ﴿ يستهزئون ﴾ بها مع كونها أبعد شيء عند الهزء ، ويستمرون على ذلك بتجديده مع كل حين حتى كان استهزاؤهم بغيرها كأنه عدم .

إنهم لما أساءوا زادتهم إساءتهم عماوة حتى ارتكسوا في العمى ، فوصلوا إلى التكذيب والاستهزاء ، الذي هو أقبح الحالات ، عكس ما يجازى به المؤمن مع أنه يزداد بإيمانه هدى[1] .

قال الفخر الرازي :

في هذه الآية لطائف :

إحداها : قال في حق الذين أحسنوا ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى** ﴾ [يونس : ٢٦] وقال في حق من أساء ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى** ﴾ إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر ؛ فإن الحسنى اسم للجنة ، والسوءى اسم للنار ، فإذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء ، ومن له شيء كلما يزداد وينمو فيه فهو له ؛ لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة ، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين .

وأما الذين أساءوا فالسوءى وهي جهنم في العاقبة مصيرهم إليها .

الثانية : ذكر الزيادة في حق المحسن ، ولم يذكر الزيادة في حق المسيء ؛

---

(١) نظم الدرر (١٥ / ٥٣ - ٥٤) .

لأن جزاء سيئة سيئة مثلها .

الثالثة : لم يذكر في المحسن أن له الحسنى بأنه صدق ، وذكر في المسيء أن له السوءى بأنه كذب ؛ لأن الحسنى للمحسنين فضل ، والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ .

وأما السوءى للمسيء عدل ، والعادل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلًا ، فذكر السبب في التعذيب وهو الإصرار على التكذيب ، ولم يذكر السبب في الثواب[1] .

[الآية التاسعة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **استكبار في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلًا ولن تجد لسنت الله تحويلًا** ﴾ [فاطر : ٤٣] .

قال ابن كثير :

﴿ **استكبارًا في الأرض** ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله .

﴿ **ومكر السيء** ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله .

﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ ، أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم[2] .

قال ابن جرير : وقوله : ﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ يقول : ولا ينزل المكر السيء إلا بأهله ، يعني : بالذين يمكرونه ، وإنما عني أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركون إلا بهم[3] .

قال القرطبي :

﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ أي لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢ / ٤٤٣) .

(٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٥٤٥ .

(٣) تفسير ابن جرير ١٠ / ١٤٦ .

أشرك ، وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر .

وعن ابن عباس أن كعبا قال له : إني أجد في التوراة : من حفر لأخيه حفرة وقع فيها . فقال ابن عباس : فإني أوجدك في القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال : فاقرأ : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلّا بأهله ﴾ وفي أمثال العرب : من حفر لأخيه جبًّا وقع فيه منكبًا ...

وقال بعض الحكماء :

يـا أيها الظـالم في فعلـه والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تحصي المصائب وتنسى النعم[1]

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

ولهذا قيل في المثل : وما ظالم إلا سيبلى بظالم .

وقال الشاعر :

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المِبْرد

ومن كلام عامة أهل تونس : يا حافر حفرة السّوء ، ما تحفر إلا قياسك .

فيكون موقع قوله : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله - ﷺ - مكرهم ، ويحيق ضر مكرهم بهم .

وقال : والمعنى أنه لا تقع الكرامة في موقع العقاب ، ولا يترك عقاب الجاني ، وفي هذا المعنى قول الحكماء : ما بالطبع لا يتخلف ، ولا يختلف[2] .

قال سيد قطب :

﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ .

فما يصيب مكرهم السيىء أحدًا إلا أنفسهم ، وهو يحيط بهم ويحيق

---

(١) تفسير القرطبي (٨ / ٥٥٤١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٢ / ٣٣٥) .

ويحبط أعمالهم ، وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن ؟. إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم ، وهو معروف لهم ، وإلا أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد .

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلًا ولن تجد لسنة الله تحويلًا ﴾[١] .

[الآية الثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ..** ﴾ [المجادلة : ١١] .

قال ابن كثير : ﴿ **فافسحوا يفسح الله لكم** ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة » . وفي الحديث الآخر : « من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة »[٢] .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

﴿ **يفسح الله لكم** ﴾ وهو وعد بالجزاء على الامتثال لأمر التفسح من جنس الفعل ، إذ جعلت توسعة الله على المتمثل جزاءً على امتثاله الذي هو إفساحه لغيره[٣] .

قال الفخر الرازي :

أما قوله تعالى : ﴿ **يفسح الله لكم** ﴾ .

واعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة[٤] .

---

(١) الظلال (٥ / ٢٩٤٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨ / ٣٨) .

(٤) مفاتيح الغيب (١٥ / ٤٥١) .

[الآية الحادية والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

قال ابن كثير : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ سر بديع ، وهو أنهم لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم والفضل العميم[1] .

يقول ابن القيم في الرضا :

رضا العبد عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه . فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق ، رضي ربه عنه بالقليل من العمل .

وقال :

إن الرضا عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضا الله عنه ، فإن الجزاء من جنس العمل .

وقال أيضًا :

إن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها ؛ لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه ، قال الله تعالى : ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ [التوبة : ٧٢] بعد قوله : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال[2] اهـ .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢٩) .

(٢) مدارج السالكين (جـ٢ / ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٧) .

[الآية الثانية والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ [الحشر : ١٩] .

قال ابن كثير : أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل الصالح الذي ينفعكم في معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **أولئك هم الفاسقون** ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم(١) .

قال محمد الطاهر عاشور :

وأشعر فاء السبب بأن إنساء الله إياهم أنفسهم مسبب على نسيانهم دين الله ؛ أي لمّا أعرضوا عن الهدى بكسبهم وإرادتهم ، عاقبهم الله بأن خلق فيهم نسيان أنفسهم(٢) .

قال القرطبي :

وقيل : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم ، قاله سفيان(٣) .

قال ابن جرير : يقول تعالى جلّ ذكره : ولا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم ﴿ **فأنساهم أنفسهم** ﴾ يقول : فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات(٤) .

قال سيد قطب :

يحذرهم في الآية التالية من أن يكونوا ﴿**كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾ .

وهي حالة عجيبة .. ولكنها حقيقة .. فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٤٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٨ / ١٣) .

(٣) القرطبي (٩ / ٦٥٢٢) .

(٤) تفسير ابن جرير (١١ / ٥٢) .

وفي هذا نسيان لإنسانيته ، وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى ، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادًا للحياة الطويلة الباقية ، ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد[١] .

[الآية الثالثة والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **إنهم يكيدون كيدًا . وأكيد كيدًا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا** ﴾ [الطارق : ١٥ - ١٧] .

قال القاسمي :

﴿ **إنهم** ﴾ أي المكذبين به الجاحدين لحقه .

﴿ **يكيدون كيدًا** ﴾ أي يمكرون مكرًا ؛ لإبطال أمر الله ، وإطفاء نوره .

﴿ **وأكيد كيدًا** ﴾ قال ابن جرير : أي وأمكر مكرًا . ومكره جل ثناؤه بهم ، إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم[٢] .

قال سيد قطب : فهذا كيد ، وهذا كيد ، وهذه هي المعركة ، ذات طرف واحد في الحقيقة وإن صورت ذات طرفين لمجرد السخرية والهزء[٣] .

قال البقاعي : ﴿ **إنهم** ﴾ أي الكفار .

﴿ **يكيدون كيدا** ﴾ بما يعملون في أمره من الحيل ، في إبطاله ، وإطفاء نوره ، بإثباتك أو إخراجك أو قتلك أو تنفير الناس عنك ، والحال أنه لا قوة لهم أصلًا على ذلك ، ولا ناصر لهم بوجه من الوجوه ، وسمي جزاؤه لهم سبحانه كيدا : مشاكلة ؛ ولأنه خفي عنهم ومكروه إليهم فهو على صورة الكيد ، فقال : ﴿ **وأكيد** ﴾ أي : أنا بإتمام اقتداري كيدا باستدراجي لهم إلى توغلهم فيما يغضبني ؛ ليكمل ما يوجب أخذي لهم من حيث لا يشعرون[٤] .

---

(١) الظلال (٦ / ٣٥٣١) .

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٧ / ٦١٢٦) .

(٣) الظلال (٦ / ٣٨٨١) .

(٤) نظم الدرر (٢١ / ٣٨٤ -٣٨٥) .

[الآية الرابعة والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ [مريم : ٨١، ٨٢] .

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة ؛ لتكون لهم تلك الآلهة عزا ويعتزون بهم ، ويستنصرونهم .

ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا ، فقال : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أي : يوم القيامة : ﴿ **ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ أي : بخلاف ما ظنوا فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ [الأحقاف : ٥، ٦] .

وقال السدي : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أي : بعبادة الأوثان .

وقوله : ﴿ **ويكونون عليهم ضدا** ﴾ أي : بخلاف ما رجوا منهم[1] .

والجزاء من جنس العمل ، خذلوهم أحوج ما كانوا إليهم .

[الآية الخامسة والثلاثون]

قال تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون**﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الإمام ابن القيم: قول الله تعالى ذكره: ﴿**وجعل على بصره غشاوة**﴾

الغشاوة هي الغطاء ، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب ؛ فإن ما في القلب من الخير والشر يظهر على العين ، فالعين مرآة القلب ، تظهر ما فيه ، وأنت إذا أبغضت رجلًا بغضًا شديدًا أبغضت كلامه ومجالسته ، فتجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته ، فذلك أثر البغض والإعراض عنه .

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٢٥٦ - ٢٥٧) .

وغلظت الغشاوة على الكفار ؛ عقوبة لهم عن إعراضهم ونفورهم عن الرسول ﷺ ، وعما جاء به من الهدى ومن الحق .

وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحتها كالغمامة ، ولما غشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك الغشي غشاوة على أعينهم ، فلا تبصر مواقع الهدى(١) اهـ .

[الآية السادسة والثلاثون]

قال تعالى: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾ [محمد: ١٧].

قال ابن كثير :

﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ أي : والذين قصدوا الهداية ، وفقهم الله لها ، فهداهم إليها ، وثبتهم عليها ، وزادهم منها ، ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾ أي ألهمهم رشدهم(٢) .

قال الألوسي :

قال الطيبي : ومن كان في الهداية منهما ، يزيد الله تعالى هدايته ، فيجمع سبحانه له خير الدارين ، وهذا الجواب من الأسلوب الحكيم(٣) .

قال سيد قطب :

فالذين اهتدوا بدءوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾(٤) .

قال ابن القيم :

ونظير هذا : هدايته لعبده قبل الاهتداء ، فيهتدي بهدايته ، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى ، يثيبه الله بها هداية على هدايته ، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده كما أن من عقوبة الضلالة ، الضلالة بعدها ، قال تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا**

---

(١) شفاء العليل ص ٩١ .
(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٢٧٠) .
(٣) روح المعاني (١٦ / ١٢٨) .
(٤) الظلال (٦ / ٣٢٩٤) .

زادهم هدى ﴾ فهداهم أولًا فاهتدوا ، فزادهم هدى ثانيًا ، وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى : **﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾** فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم[١] .

وقال ابن القيم : وللهداية مرتبة أخرى – وهي آخر مراتبها – وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة ، وهو الصراط الموصل إليها . فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم ، الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم ، الموصل إلى جنته ودار ثوابه ، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار ، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم . وعلى قدر سيره على هذا الصراط ، يكون سيره على ذاك الصراط ، فمنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالطَّرف ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الركاب ، ومنهم من يسعى سعيًا ، ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يحبو حبوا ، ومنهم المخدوش المسلَّم ، ومنهم المكردس في النار[٢] .

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا ، حذو القذة بالقذة ، جزاء وفاقا **﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾** [النمل : ٩٠] .

[الآية السابعة والثلاثون]

قال تعالى : **﴿ من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾** [النحل : ٩٧] .

قال ابن كثير : هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا ، وهو العمل المتابع لكتاب الله وسنة نبيه ، من ذكر أو أنثى من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ، بأن يحييه حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣١٣) .   (٢) السابق (١ / ١٠) .

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت ، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعنه أنها السعادة .

وقال الضحاك : هي العمل بالطاعة ، والانشراح بها .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة ؛ يعطى بها في الدنيا ، ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن له حسنة يعطى بها خيرًا » . انفرد بإخراجه مسلم[١] .

وقال ابن كثير :

من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة[٢] .

[الآية الثامنة والثلاثون]

وقال تعالى : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ [النحل : ٣٢] .

طيبة نفوسهم بلقاء الله معافين من الكرب وعذاب الموت ، يقولون سلام عليكم طمأنة لقلوبهم ، وترحيبا بقدومهم ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ تعجيلًا لهم بالبشرى ، وهم على أعتاب الآخرة جزاء وفاقا على ما كانوا يعملون[٣] .

قال ابن كثير : أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ؛ أي مخلَّصون من الشرك والدنس وكل سوء[٤] .

وقال الفخر الرازي :

﴿ **طيبين** ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة ، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أُمروا ، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ، ويدخل فيه كونهم مبرئين

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٢٠-٥٢١) .
(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤٨٧) .
(٣) الظلال (٤ / ٢١٦٩) .
(٤) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٨٧) .

من العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة ، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح ، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة ، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها .

وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الأرواح ، وأنه الحشر يقول : إنه وفاة الحشر(١) .

وقال الألوسي: قال مجاهد: المراد- بطيبين- زاكية أقوالهم وأفعالهم.

وقال الراغب : الطيب من الإنسان من تعرّى عن نجاسة الجهل والفسق ، وقبائح الأعمال ، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال(٢) .

[الآية التاسعة والثلاثون]

وقال تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ [الزمر : ٧٣].

قال ابن كثير :

طابت أعمالكم وأقوالكم ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم(٣) .

وقال سيد قطب : فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب ، وبيان السبب طبتم وتطهرتم ، كنتم طيبين ، وجئتم طيبين ، فما يكون فيها إلا الطيب . وما يدخلها إلا الطيبون ، وهو الخلود في ذلك النعيم(٤) .

[الآية الأربعون]

قال تعالى : ﴿ **ويدخلهم الجنة عرّفها لهم** ﴾ [محمد : ٦] .

على أحد قولي علماء التفسير قال ابن عباس : عرّفها ؛ أي طيبها ؛ أي جعل فيها عرفًا ؛ أي ريحًا طيبًا ، والتطييب من تمام حسن الضيافة(٥) .

---

(١) مفاتيح الغيب (٥١٨/٩) .

(٢) روح المعاني للألوسي (١٣٣/١٤) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤ / ٦٨) .

(٤) الظلال (٥ / ٣٠٦٣) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٦ / ٨٤) .

﴿ **فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي** ﴾ [الفجر : ٢٩ ، ٣٠] .

كحالة من يهدي العروس إلى بيتها ، فإذا أبلغها بابه خلّى بينه وبين بيتها ، كأنهم يقولون : هذا منزلكم فدونكموه .

طابت وزكت منهم الأعمال ، والأخلاق والأحوال ، فكانوا في دار الدنيا طيبين ، وخدموا الطيب عز وجل ، وأنهكوا الأبدان ، طاعة للجميل الرحمن ، فطاب نزعهم وموتهم ، فروح وريحان ، وجنة نعيم ، تخرج منهم رائحة كأطيب نفحة مسك على وجه الأرض .

وطاب حشرهم ونشرهم ، وطاب زفهم إلى ديارهم ، وفدا وركبانا ، بل تقرب إليهم الجنة ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ [ق : ٣١] .

وطاب دخولهم الجنة ، لايدخلونها إلا وعلى رؤوسهم التيجان ، تحفهم الملائكة ، وطُيبت الجنة لهم ، طاب مأواهم لما طاب عملهم ومسعاهم .

والجزاء من جنس العمل .

إن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر :

أحدها : أنه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله ، وعرف أن ربه محسن كريم كان راضيا بكل ما قضاه وقدّره ، أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول فكان أبدا في الحزن والشقاء .

ثانيها : أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله ، والقلب إذا كان مملوءًا من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا .

ثالثها : أن المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة ، فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمّه بفقدانها ، أما الجاهل فإنه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها ، فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها وغمّه بفقدانها .

رابعها : أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا سريعة التّقلب فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره إليه ، بخلاف الجاهل ، فإنه يكون غافلًا عن هذه المعارف فيطبع قلبه عليها ، ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه ، فعند فوته وزواله

يحترق قلبه ، ويعظم البلاء عنده ، هذا إذا فسرنا الحياة الطيبة بأنها في الدنيا .

قال السدي : إن هذه الحياة الطيبة ، إنما تحصل في القبر .

وقال الحسن وسعيد بن جبير : إن الحياة الطيبة لا تحصل إلا في الآخرة في الجنة ؛ لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا مرض ، وملك بلا زوال ، وسعادة بلا شقاء[1] اهـ .

والأولى أنها في كل أحواله وأوقاته .

قال ابن القيم : قد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته ، فقال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ الآية ، وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا ، والرزق الحسن وغير ذلك ، والصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه ؛ فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها ، ولا نعيم فوق نعيمه ، إلا نعيم الجنة ، كما كان بعض العارفين يقول : إنه لتمر بي أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال غيره : إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا .

وقال غيره : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من سعادة لجالدونا عليها بالسيوف .

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث ، والمعيشة الضنك تكون أيضًا في الدور الثلاث : دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار ، فالأبرار في النعيم هنا وهناك والفجار في الجحيم هنا وهناك ، قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير** ﴾ [النحل : ٣٠] .

[الآية الحادية والأربعون]

وقال تعالى : ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا**

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٩ / ٦٣١ - ٦٣٢) .

إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ [هود : ٣] . فذكر الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة .

وأطيب الحياة على الإطلاق حياة هذا العبد فإنه محب محبوب ، متقرب إلى ربه ، وربه قريب منه إن سمع سمع بحبيبه ، وإن أبصر أبصر به ، فإن صعب عليك فهم هذي المعاني :

خل الهوى لأناس يعرفون به ... قد كابدوا الحبَ حتى لان أصعبُهم

وأعلى أنواع التقرب ، تقرب العبد بجملته بظاهره وباطنه وبوجوده إلى حبيبه ، فمن فعل ذلك قد تقرب بكله ، قد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جُوزي على ذلك بقرب هو أضعافه ، وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطي أضعاف أضعاف ما تقرب به ، فما الظن بمن أعطى حال التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه وجميع إرادته وهمته وأقواله وأعماله ؟. وعلى هذا فكما جاء لحبيبه بنفسه ، فإنه أهل أن يجاد عليه ، بأن يكون ربه هو حظه ونصيبه عوضًا عن كل شيء ، جزاءً وفاقًا فإن الجزاء من جنس العمل ، وشواهد هذا كثيرة ، فهذه الحياة هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة ، فمن فقدها ، ففقده لحياته أولى به ، هذي حياة الفتى ، فإن فقدت ففقده للحياة أليق به .

ووراء هاتيكَ الستورِ محجَّبٌ ... بالحسنِ كل العزِّ تحت لوائِهِ
لو أبصرتْ عيناك بعضَ جماله ... لبذلت منك الروحَ في إرضائِهِ
ما طابتِ الدنيا بغير حديثه ... كلا ولا الأخرى بدون لِقائِهِ
يا خاسرًا ، هانت عليه نفسه ... إذ باعها بالغبن من أعدائِهِ
لو كنت تعلم قدر ما قد بعته ... لفسختَ ذاك البيعَ قبل وفائِهِ
أو كنت كفؤًا للرشاد وللهدى ... أبصرت لكن لست من أكفائِهِ[1]

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٥٨ - ٢٩٠)